الرابطة الثقافية بين الأقطار العربية

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

« . . ما هي الفكرة التي يعقلها المصرى في القاهرة ، ولا يتأتى ان يعقلها العراقى في بغداد ، والشامى في دمشق ، والحجازى في مكة ، وسائر الناطقين بالعربية من طرابلس الى مراكش وما وراءهما من الاقطار الافريقية ؟ ان كان هناك شيء من هذا القبيل فعلة الاختلاف فيه هو اختلاف التعليم والمعيشة . . »

الأقاويل في أصل المصريين القدماء لا تتفق . فمن قائل أنهم هبطوا الى مصر مع النيل من بلاد اليمن أو العدوة التي تقابلها ، ومن قائل أنهم أثيوبيون في الأصل البعيد أو في أصل بعض الدول التى أدركها التاريخ ، ومن قائل أنهم جاءوا من العراق الجنوبي واخترقوا الصحراء الى البحر الاحمر ، وثبت من الكشوف الحفرية أن بعض الحلى والدبابيس وجدت في مصر وفى العراق الشمالى على نمط واحد قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، ولا يعرف على التحقيق هل كان أجداد المصريين في تلك الاصقاع ثم جاءوا إلى مصر ، أو أن فاتحاً من الفاتحين المصريين ذهب الى تلك الاصقاع وحمل معه ما حمل من تلك المصنوعات المصرية

وهناك من يقول ان المصريين من أصل أوروبي ، ومن يقول انهم من افريقية الغربية حيث يقيم أجداد البربر السابقون ـ والفصل في هذه الخلافات عسير

ولكن الأمر الذى لا خلاف فيه أن الملكة الثقافية بين مصر واليمن والسودان والجزيرة العربية والعراق الجنوبي والعراق الشمالى ، وما بين مصر وهذه الاقطار هى فى اللباب ملكة واحدة أو ملكة متقاربة . . فالفكرة أو العقيدة التى تنشأ في مصر لا تلقى صعوبة في فهمها واستحضارها باليمن أو سورية أو العراق

فليس هنالك اختلاف فى طبيعة التفكير والتصور كالاختلاف الذى يكون بين الهندى والمغولى ، أو بين أمم السلاف وأمم والسكسون ، أو بين الهنود الحمر والبيض ، وانما تتقارب المدارك والمعقولات بين الامم التى تشملها الآن الرقعة العربية كأنها من أصل واحد أو كأنها

لا فرق بينها وبين الامم التى تحدرت من أصل واحد

ولهذا تجانست شرائع أخناتون وموسى وحمورابي في الزمن القديم ، وليس من المهم أن نعرف المصدر السابق والمصدر المسبوق فى ابتداء هذه الشرائع المتجانسة ، وانما المهم أن نعرف أن المدارك والمعقولات واحدة بين هذه الامم . حتى يوم كانت على عداء مستحكم وتفرقة في اللغات والحضارات ، فأما اليوم فهى من باب أولى أقرب الى وحدة الثقافة ووحدة الجوار

اليوم يتكلم العراق واليمن والسودان ومصر وسورية بلغة واحدة ، ويدينون بعقيدة واحدة هى العقيدة الاسلامية ، ومن كان منهم لا يدين بهذه العقيدة فهو قد خدم الثقافة العربية كما خدمها المسلمون ، والشواهد على ذلك كثيرة من أعمال اليازجي والبستانى وزيدان وغيرهم

ما هى الفكرة التى يعقلها المصرى فى القاهرة ولا يتأتى أن يعقلها العراقي في بغداد والشامي فى دمشق والحجازى في مكة وسائر الناطقين بالعربية من طرابلس الى مراكش وما وراءها من الاقطار الافريقية ؟ ـ ان كان هنالك شيء من هذا القبيل فعلة الاختلاف فيه هو اختلاف التعليم والمعيشة وليس اختلاف الملكة والمزاج الأصيل

ومن ثم نستطيع أن نقرر الوحدة الثقافية بين هذه الاقطار ولا حاجة بنا الى انتظار الفصل بين علماء الاجناس في حجم الرءوس ولون الشعور وما حفظته الارض من بقايا الحلى والفخار

وفى اعتقادنا أن هذه الوحدة الثقافية قابلة للتقدم والاتساع والتمكين لانها لم تبلغ بعد مداها ولم تزل في أوائل خطواتها . ولكنها ستبلغ هذا المدى عند ما يتحقق لها أمران :

أولها : التقارب فى درجة التعليم وطبقة الحضارة

والثاني : وحدة المعاملات الاقتصادية وما يدخل فى اطوائها من الصلات التى تجري مجراها

فمن أبناء هذه الاقطار من لا يقرأ شيئاً بعد محفوظات القرن التاسع أو القرن العاشر . فالزمن عندهم قد وقف منذ الف سنة او تزيد ـ هؤلاء شركاؤنا في المكان وفي اللغة ، ولكنهم في الزمان بيننا وبينهم أبعد مما يكون بين المشرقين والمغربين . ومناط الرجاء في هذا الصدد أن وسائل الوحدة موجودة وعوامل الوحدة موجودة ، وستأتى الوحدة الكاملة إذن مع الزمن

أما وحدة المعاملات فهى حتى اليوم لم تبلغ ما يحق لها ان تبلغه من التوثيق والتنظيم ، ولو كانت كما ينبغي لوجب ان اقرأ الكتاب البغدادى وانا في القاهرة بالسهولة التى يقرأه بها المقيم في بغداد ، ولوجب ان تنعقد الصلة بين الكاتبين والقارئين في كل مكان عربى كأنهم من اقليم واحد وكأنهم يدينون بشريعة واحدة ونظام واحد في المعاملات

هكذا يحدث بين قراء اللغة الانجليزية او الروسية او الجرمانية ، فالمؤلف الانجليزى يحاسب شركة واحدة على الكتاب الذى يقرأ في انجلترا واستراليا والهند وافريقية الجنوبية، والمعاملات الثقافية فى الروسيا او الامم الجرمانية لا تحتاج الى الوساطات والتعقيدات التي يحتاج اليها الكاتب العربى للاتصال بقرائه في كل مكان ، ولكن الرقعة العربية ليست على ما ينبغى من انتظام هذه الصلات الثقافية في باب المعاملات ، وهى اشبه شيء بمكان واحد له حدود مشتركة ولكنها مقطوعة بالحواجز والسدود والمخاوف والعقبات ، فالحدود تجمعها فى حيز واحد والعقبات تحول بين جانب منها وجانب ، فلا يتقاربان إلا بعد جهد جهيد

إذن لابد لنا من التقارب في درجة التعليم والحضارة ، ولابد لنا كذلك من تنظيم الوحدة الثقافية فيما يرجع الى المعاملات الاقتصادية

فأما التقارب في درجة التعليم والحضارة فسبيله الاكثار من مؤتمرات الثقافة فى عواصم العربية بين آونة وأخرى ، يقترن هذا بالتعاون بين جميع الامم العربية على تبادل المعلمين والاخصائيين وأصحاب الفنون والصناعات حسبما يكون لديها من الحاجة أو من الاستعداد والقدرة

وأما وحدة المعاملات فسبيلها إقامة الشركات الكبرى التى تعامل القاهرة كما تعامل مراكش وصنعاء ، وتتكفل للكاتب أن يتصل بالقارىء الذى يفهمه ، وللقارىء أن يتصل بالكاتب الذي يعنيه ، فلا يكون للموضوع الثقافي عشرة آلاف قارىء وأنت تكتب فيه ولا تتصل إلا بألف منهم أو الفين ، بعد توسيط خمسة أو ستة من أصحاب المكتبات والموزعين

كنت فى القطار العائد من دمشق الى لبنان فاجتمعنا في ديوان واحد أربعة من المشتغلين بالقراءة والدراسة ، وواحد منا محام متفرنج يقول لنا بعد أن تعارفنا واخذنا نبحث في موضوع الكتاب الفرنسى الذى كان يقرأ فيه : وماذا في العربية مما يستحق القراءة ؟ تلك لغة مقضى عليها بالفناء وليست هي بأقوى على البقاء من لغة الرومان الاقدمين ، وقد كانت لهم دولة وصولة ونشأت على أعقابهم أمم دخلت لغتهم في لغاتها ثم بادت اللاتينية من عالم اللغات الحية واصبحت لا تعرف إلا في المعاجم وعلى السنة الفقهاء

هذا كلام يائس نرجو ان يكون واهما في تقديره ، وانما طريق البقاء للغة العربية ان تصبح لغة الثقافة ـ لا لغة الحديث الدارج فحسب ـ بين عشرات الملايين ، وستصبح كذلك يوم تنتظم بين ابنائها صلة الثقافة العامة وصلة المعاملات الثقافية ، وهذه وتلك من الممكنات الميسرات

عباس محمود العقاد